ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.02].

المعالم الأثرية في مدينة مكناس
آليات الصيانة والإنقاذ

د. سعيد عبيدي
أستاذ باحث في التراث والتنمية
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين – فاس مكناس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يتناول هذا المقال جوانب من التراث المعماري لمدينة مكناس وآليات الصيانة والإنقاذ، وذلك بمنهج استنباطي ينطلق من استعراض بعض النصوص التشريعية والقانونية لحماية التراث الثقافي في المغرب، ثم محاولة إبراز حظ المدينة الإسماعيلية من هذه القوانين عامة، ومن سياسة رد الاعتبار لمكونات عمارتها الدينية والمدنية والعسكرية التي يتألف منها نسيجها العمراني العتيق، مما مكن من الخروج بعدة نتائج أبرزها يتمثل في أنه رغم المجهودات المبذولة لحماية التراث ورد الاعتبار لمعمار مدينة مكناس، فإن مسلسل التدهور والتلاشي يفوق بكثير الاستراتيجيات المعتمدة في هذا الشأن لصيانة وإنقاذ معالمها المعمارية التي تم تشييدها خلال العصر الوسيط والحديث والفترة الاستعمارية، مما يحتم على الجهات المعنية بذل جهود مضاعفة تستلهم التجارب الناجحة دوليًا وطنيًا في إدارة التراث وتثمينه.

بيانات المقال:
تاريخ استلام المقال: ١٩ أبريل ٢٠١٦
تاريخ قبول النشر: ١٥ أغسطس ٢٠١٦

كلمات مفتاحية:
مدينة مكناس، التراث المغربي، المعالم الأثرية، المباني التاريخية، التراث العمراني

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0053272

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
سعيد عبيدي. "المعالم الأثرية في مدينة مكناس: آليات الصيانة والإنقاذ".- دورية كان التاريخية.- السنة الحادية عشرة- العدد الواحد والأربعون؛ سبتمبر ٢٠١٨. ص١٠١ – ١٠٥.

مُقَدِّمَةُ

تعتبر مدينة مكناس بمعالمها التاريخية ومبانيها الأثرية المتنوعة ما بين الأسوار، الأبواب، الأبراج والقصور وغيرها، إحدى العواصم التاريخية للمغرب. ومدينة عريقة تشكل نموذجًا معماريًا متميزًا للمعمار المغربي الأصيل المتسم بالإتقان في الصنعة والتحكم في التقنية والمزج بين الفنية والجمالية، مما جعل هذه المدينة السلطانية تصنف في ٧ دجنبر ١٩٩٦ تراثًا عالميًا من لدن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة المعروفة اختصارًا باليونسكو. وقد عرفت مدينة مكناس منذ بداية الألفية الثالثة ترميم عدد من المعالم التاريخية للمدينة، نتيجة الإهمال الذي طال غالبية المباني الأثرية المقيدة في عداد الآثار بحاضرة مكناس. مما أدى إلى تدهور كثير من المعالم الأثرية لمدينة الإسماعيلية وانهيار بعضها، وهذا ما جعل منظمة اليونسكو توجه إنذارًا وتهدد بسحب الاعتراف بمدينة مكناس كتراث عالمي للإنسانية إذا لم يتم ترميم معالمها التاريخية المقيدة في عداد الآثار. وتهدف مباحث هذا المقال الموسوم بـ "المعالم الأثرية بمدينة مكناس: آليات الصيانة والإنقاذ" إلى التعريف بتراث مدينة مكناس الغني والمتنوع الروافد والجهود المبذولة في سبيل الحفاظ على الموروث التاريخي والأثري للحاضرة الإسماعيلية.

أولاً: الموقع الجغرافي والتطور التاريخي لمدينة مكناس

١/١-الموقع الجغرافي لمدينة مكناس

تقع مدينة مكناس في المنطقة الجنوبية الوسطى ويحدها شمالاً إقليمي سيدي قاسم والقنيطرة، وجنوبًا إقليما إيفران وخنيفرة، وشرقًا مدينة فاس، وغربًا إقليم الخميسات. وتبعد مدينة مكناس عن العاصمة الإدارية الرباط بحوالي ١٤٠ كلم. وتتميز المدينة

الإسماعيلية بموقعها الاستراتيجي الهام على شكل هضبة متوسطة الارتفاع بين بداية سلسلة جبال الأطلس المتوسط ومقدمة جبال الريف شمالاً (منطقة زرهون)[١]. وقد اكتسى موقع مدينة مكناس أهمية بالغة من الناحية الإستراتيجية والاقتصادية أهلها لتضطلع بأدوار مهمة منذ بداية تاريخها، وعلى مر فتراته المتعاقبة، حيث اعتبرت هدفًا أساسيًا لكل الدول المتعاقبة على حكم المغرب، وكذلك المستعمر الفرنسي.[٢]

٢/١-لمحة تاريخية عن مدينة مكناس

عرفت منطقة مكناس تعاقب عدة عهود، حيث تميز كل عهد عن سابقه كالعهد الإدريسي، المرابطي، الموحدي والمريني وصولاً إلى العهد العلوي الذي عرفت فيه مدنية مكناس أوج ازدهارها خلال عهد السلطان العلوي المولى إسماعيل (١٦٧٢-١٧٢٧م). وفي هذا السياق، فقد كانت مدينة مكناس قبل حكم المرابطين عبارة عن مجموعة من المدائن المتفرقة،[٣] تقع جلها شمال موقع المدينة الحالية، استوطنتها عناصر بشرية من قبيلة مكناسة الزناتية، أضيفت إليهم عناصر من القبائل وهي: ورزيغة وعوسجة. وفي عهد المرابطين تمت السيطرة على مدائن مكناس، وذلك بعد تأسيس المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين حصن "تاكرارت"، الذي يعتبر النواة الأولى لمدينة مكناس.[٤] ومع مرور الزمن أصبحت الحاضرة المكناسية تحتضن عدة أسواق وأحياء ومساجد. ومما لا يزال قائمًا منها حتى اليوم: حومة كناوة ودرب الفتيان وغيرها.

وأما في العهد الموحدي فقد دخلت مكناس في مرحلة التمدن والحضارة، فزودت بالماء الذي جلب إليها من "عين تاكا" وذلك باستخدام قنوات من حجر متقنة البناء توضع في جوفها أنابيب الرصاص لحماية القاطنين بالمدينة من كل دنس،[٥] فضلاً عن تشييد أربعة حمامات هي: حمام الكدية، حمام المولى عبد الله بن أحمد، وحمام الجديد والحمام الصغير.[٦] وفي إطار توسيع المدينة وتزويدها بالمرافق العامة والأركان العمرانية، أحدث الموحدون أحياء جديدة، قد يكون من بينها حي سيدي أحمد بن خضراء. فضلا عن تأسيس دار الأشراف حيث يوجد مقر المشرف على الجبايات.[٧]

مع حلول العقد المريني اندثرت حواثر مكناس الواقعة على ضفاف نهر ويسلان وبوفكران وتحولت إلى جنات مغروسة، فنزح أهلها إلى المدينة الجديدة للاستقرار في أحيائها، فشرع أبو يوسف في بناء قصبة جديدة بمدينة مكناس وتشييد جامعها المعروف حاليًا بجامع للاعودة، فضلاً عن تأسيس المدرسة الفيلالية والمدرسة البوعنانية ومدرسة العدول. وقد امتازت المنشآت المرينية بجنوحها إلى المزج بين الطابعين الفني المغربي والأندلسي. وفي عهد الوطاسيين والسعديين لم تشهد مكناس مشاريع عمرانية جديدة، نتيجة المرحلة القصيرة للحكم الوطاسي بالمغرب واتخاذ السعديين لمدنية مراكش عاصمة لهم، فضلاً عن الانشغال بصد الغزو الايبيري للسواحل المغربية، الذي جعل الاهتمام ينصب على المدن الساحلية أكثر من الحواضر الداخلية. تحول مسار مدينة مكناس منذ أن اتخذها المولى إسماعيل (١٦٧٢-١٧٢٧) عاصمة لملكه، حيث أن اهتمامه بتشييد معالمها لم يكن أقل شأنًا من اهتمامه بترسيخ أسس العلاقات الدبلوماسية مع دول العالم شمالاً وجنوبًا، وبذلك جعل منها مفخرة العصر لدرجة جعلت المؤرخ الفرنسي سان ألون سفير لويس الرابع بقوله: "لقد كان المولى إسماعيل يريد أن يحدث لأمته آية من آيات ملكه".[٨]

ثانيًا: النصوص التشريعية والقانونية لحماية التراث المغربي

٢/١-المقاربة الاستعمارية لحماية التراث المغربي (١٩١٢-١٩٥٦)

عرفت المدن المغربية تطورًا كبيرًا بعد توقيع معاهدة الحماية الفرنسية في ٣٠ مارس سنة ١٢١٩، نتيجة ارتفاع عدد السكان الحضريين - بشكل لافت للانتباه-الذين قدر عددهم بـ ٦٥٠ ٠٠٠ نسمة سنة ١٩١٤م[٩]. مما أجبر السلطات الاستعمارية الفرنسية تعمل على التخطيط والتنظيم والتقنين للتحكم في النمو الديمغرافي السريع للمراكز الحضرية المغربية آنذاك. وذلك ما يتجلى في إحداث الحماية الفرنسية لعشر مدن جديدة بالقرب من المدن العتيقة الكبرى بهدف ترسيخ الوجود الفرنسي بالمغرب عن طريق "الضبط الأمني للتجمعات الحضرية الكبرى وتسهيل استغلال وترحيل خيرات البلاد"[١٠].

وقد ارتكزت سياسة المقيم العام الجنرال ليوطي (١٩١٢-١٩٢٥م) لتطبيق سياسته في ميدان التعمير حول العمل على الفصل بين المدينة العتيقة والمدينة الأوربية الحديثة، وإعادة إحياء المدينة عن طريق مدها بالمرافق الضرورية، فضلاً عن تجريب المدن الجديدة. وفيما يخص النصوص التشريعية المرتبطة بحماية التراث خلال عهد الحماية فقد صدر ظهير ٢٦ نونبر ١٩١٢ المتعلق بحماية المعالم التاريخية لبلادنا. وفي ١٣ فبراير ١٩١٤ صدر ظهير شريف آخر أحدث ما يُسمى بـ "مناطق الحماية الفنية". فضلاً عن ظهير ٢١ يوليوز ١٩٤٥ المرتبط بالتعمير وكذلك الشأن بالنسبة لظهير ٣٠ يوليوز ١٩٥٢. وأما في

٣٠ شتنبر ١٩٥٣ فقد صدر ظهير آخر يتعلق بالتجزيئات والتقسيم العقاري[١١].

٢/٢-الإطار التشريعي للمحافظة على تراث مغرب ما بعد الاستقلال

بعد حصول المغرب على الاستقلال سنة ١٩٥٦، ظل العمل في مجال حماية التراث التاريخي والأثري ببلادنا مستمر بظهير ١٩٤٥ المرتبط بالمحافظة على المعالم والمباني والمواقع والكتابات المنقوشة والتحف الفنية والعاديات وحماية المدن العتيقة والهندسة المعمارية القروية. إلى حدود بداية الثمانينيات من القرن الماضي، التي تمت خلالها المصادقة على الظهير الشريف رقم ١,٨٠,٣٤١ بتاريخ ١٧ صفر ١٤٠١ (٢٥ دجنبر ١٩٨٠)، الذي يتضمن الأمر بتنفيذ القانون رقم ٢٢,٨٠ المتعلق بالمحافظة على المباني التاريخية والمناظر والكتابات المنقوشة والتحف الفنية والعاديات. ويتكون هذا الظهير من ٦٢ فصلاً[١٢]. والجدول الآتي يوضح الأجزاء المكونة للقانون رقم ٢٢,٨٠:

جدول رقم (١)

مضمون الأجزاء التسع للقانون رقم (٢٢,٨٠)[١٣]

الجزء	ما ينص عليه
الجزء الأول	أحكام عامة خاصة بالعقارات والمنقولات
الجزء الثاني	تقييد المنقولات والعقارات
الجزء الثالث	ترتيب المنقولات والعقارات
الجزء الرابع	إخراج المنقولات والعقارات
الجزء الخامس	حق الشفعة المخول للدولة
الجزء السادس	حماية التحف الفنية والعاديات المنقولة
الجزء السابع	أعمال الحضر والاستكشاف
الجزء الثامن	إثبات المخالفات وإصدار العقوبات
الجزء التاسع	أحكام مختلفة وانتقالية

ثالثًا: المعالم الأثرية المقيدة في عداد الآثار في مدينة مكناس وآليات الحفاظ عليها

١/٣-المباني التاريخية المقيدة في عداد الآثار في مدينة مكناس

منذ عهد الحماية الفرنسية تم تقييد وترتيب عدد من المباني التاريخية لمدينة مكناس. وتجب الإشارة إلى تقييد المنقولات والعقارات وترتيبها يخضع للنصوص التنظيمية المعمول بها وطنياً.

وجميع المعالم الأثرية لمدينة مكناس المقيدة في عداد الآثار بمدينة مكناس تم تدوينها خلال عهد السيطرة الاستعمارية الفرنسية ما بين ١٩١٢ و١٩٥٦. والجدول الآتي يبين المعالم والمباني والمواقع التاريخية المقيدة في عداد الآثار بمدينة مكناس.

جدول رقم (٢)

المباني والمواقع التاريخية المقيدة في عداد الآثار في مدينة مكناس[١٤]

المعالم الأثرية	نوع المعلمة	تاريخ الترتيب	رقم الترتيب
أكدال مكناس	مجموعة أثرية	١ يونيو ١٩٥٥	٤١
باب البرادعيين	باب	١٨ أكتوبر ١٩١٤	٠٣
باب بوعمايز	باب	١٨ أكتوبر ١٩١٤	٠٣
باب البطيوي	باب	٣٠ غشت ١٩٣٢	٣٠
باب القاري	باب	٣٠ غشت ١٩٣٢	٣٠
باب القشلي	باب	١٨ أكتوبر ١٩١٤	٠٢
باب الخميس	باب	١٨ أكتوبر ١٩١٤	٠٤
باب القصدير	باب	٣٠ غشت ١٩٣٢	٣٠
باب الجديد	باب	١٨ أكتوبر ١٩١٤	٠٣
باب كبيش	باب	٣٠ غشت ١٩٣٢	٣٠
باب لالة خضراء	باب	٣٠ غشت ١٩٣٢	٣٠
باب منصور	باب	١٨ أكتوبر ١٩١٤	٠٢
باب تيزيمي	باب	١٨ أكتوبر ١٩١٤	٠٣
برج بيبي عيشة	برج	٣٠ غشت ١٩٣٢	٣٠
برج الماء	برج	٣٠ غشت ١٩٣٢	٣٠

برج المرس	برج	٣٠ غشت ١٩٣٢	٣٠
الدار البيضاء	قصر	١٨ أكتوبر ١٩١٤	٠٥
جنان بخليمة	حديقة	١٨ أكتوبر ١٩١٤	٠٨
مربط مولاي اسماعيل	مربط	١٨ أكتوبر ١٩١٤	٠٦
فندق الحناء	فندق	١٧ فبراير ١٩٢٣	٢٢
مستشفى لويس	مصحة	١٩ نونبر ١٩٢٠	١٤
قبة الخياطين	قبة	٢٣ مارس ١٩١٨	١٠
المدرسة البوعنانية	مدرسة	١٧ فبراير ١٩٢٣	٢٢
المدرسة الفيلالية	مدرسة	١٧ فبراير ١٩٢٣	٢٢
مدينة مكناس	مجموعة أثرية	٧ يناير ١٩٢٧	٢٥
كتاتيب المدينة	الكتاتيب	١٧ فبراير ١٩٢٣	٢٢
صهريج السواني	مجموعة أثرية	١٩ أكتوبر ١٩١٤	٠٧
ساحة الهديم	مجموعة أثرية	٣٠ غشت ١٩٣٢	٣٠
الأسوار المحاطة بأكدال(١٥)	أسوار	٣٠ غشت ١٩٣٢	٣٠
سقايات المدينة الثمانية	مجموعة أثرية	٣٠ غشت ١٩٣٢	٢٢

٢/٣-آليات الحفاظ على المباني التاريخية لمدينة مكناس

رغم الإهمال الذي طال العديد من المباني التاريخية المقيدة في عداد الآثار بمدينة مكناس لسنوات، فإن الجهات المعنية بالحفاظ على المعالم الأثرية تبذل جهوداً لإعادة الاعتبار للتراث التاريخي لمدينة الإسماعيلية. وذلك ما يتجلى في أشغال الترميم التي شملت عدد من المعالم التاريخية للمدينة. وبالنسبة للجهات المتدخلة في المحافظة على المآثر التاريخية لمدينة مكناس فإنها تتجلى في مديرية التراث الثقافي والمجلس الإقليمي للمدينة والجماعة الحضرية التي تبحث عن موارد إضافية للترميم وذلك بتخصيص جزء من الفائض في ميزانيتها لإصلاح المآثر التاريخية أو بأخذ قروض أو تلقي دعم دولي من طرف المؤسسات الدولية المهتمة بحماية التراث.(١٦) وسنعمل في هذا المبحث على إعطاء نماذج لبعض المعالم التاريخية التي شملها الترميم بمدينة مكناس.

(٢/٣) ١-ترميم باب منصور

تم ترميم باب منصور يوم ١٨ نونبر ١٩٩٤، وقد شمل ترميم هذا الباب ما يلي:

- تبليط وصباغة الواجهات الداخلية للباب باللون الإسماعيلي.
- ترميم النقوش والزخارف الموجودة على الواجهة الرئيسة للباب.
- ترميم وإعادة تركيب البوابات الخشبية للباب كما كان الحال عليه من قبل.
- ترميم بوابات البيوت الداخلية.
- تزليج أرضية الفضاء الداخلي والخارجي للباب بالزليج التقليدي.
- ترميم الأعمدة الموجودة داخل وخارج الباب.
- إنارة فضاء الباب من الداخل والخارج، من أجل تزيينه وإبراز مكوناته الهندسية.(١٧)

(٢/٣) ٢-ترميم المعالم الأثرية لمدينة مكناس خلال الألفية الثالثة

شملت أعمال الترميم المنجزة لإعادة الاعتبار للتراث التاريخي بمدينة مكناس عدد من المعالم الأثرية للمدينة يوضحها الجدول الآتي:

جدول رقم (٣)

ترميم بعض المعالم التاريخية لمدينة مكناس(١٨)

العملية	التكلفة المالية بالدرهم
متحف دار الجامعي	200000 درهم
برج بلقاري	860 ألف درهم
باب جامع الأنوار	300 ألف درهم
صومعة جامع السنتيسي	196 ألف درهم
دار الباشوات	1697123 درهم
مكتبة الجامع الكبير	600 ألف درهم
باب المراح	1200000 درهم

تجب الإشارة في الأخير إلى أن غياب برنامج متكامل لترميم المعالم التاريخية بمدينة مكناس يجعل بعض المباني الأثرية تتعرض للتشويه أثناء ترميمها وهذا ما وقع لباب "كبيش" الذي كان

يتوفر على مدخل واحد وبعد أن هدم في دجنبر ٢٠٠٨ أصبح يتوفر على ثلاثة مداخل.

خَاتِمَةٌ

خلاصة القول في هذا المقال، هو أن إعادة الاعتبار للتراث التاريخي والأثري لمدينة مكناس يتطلب القيام بأعمال فورية لترميم المآثر التاريخية وحفظها من الضياع، فضلاً عن تفادي بعض الحوادث المفجعة الناتجة سقوط بعض المباني التاريخية نتيجة الإهمال الذي يطالها. وغني عن البيان أن المحافظة على المعالم التاريخية وصيانتها بمدينة مكناس لن يتم إلا بتعاون جميع الأطراف المعنية، وهي مديرية التراث الثقافي والمفتشية الجهوية للمباني التاريخية والمجلس الإقليمي للمدينة، فضلاً عن الجماعة الحضرية بمكناس ومكونات المجتمع المدني. على اعتبار أن هذه المعالم تعبر عن ذاكرته التاريخية للحاضرة الإسماعيلية وهوية الأجيال السابقة والحالية في الزمن الراهن، كما أن هذه المعالم تشكل قاطرة حقيقية للتنمية المستدامة من أجل الرقي الاقتصادي والاجتماعي لساكنة مكناس. لذلك يجب علينا الحفاظ على هذه المآثر التاريخية الثمينة التي تدل على وجودنا التاريخي.

الهَوامِشُ:

(١) المصطفى بنفايدة، **مكناس جولة في التاريخ والمعالم**، شركة الطباعة برانت شوب، مكناس، ط. ٢، ٢٠٠٨، ص ٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٧.

(٣) ابن غازي، **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، المطبعة الملكية، الرباط، ط. ٣، ١٩٩٩، ص ١٤.

(٤) محمد المنوني، **"التخطيط المعماري لمدينة مكناس عبر أربعة عصور"**، مجلة الثقافة المغربية، ج ٧، ١٩٧٢، ص ٢١.

(٥) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٠، ص. ٣٦.

(٦) ابن غازي: مصدر سابق، ص ٢٥.

(٧) **مدينة مكناس تاريخ ومعالم، منشورات ودادية رؤساء المصالح الإدارية بمكناس**، رجب ١٤٠٨هـ/ مارس ١٩٨٨، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.

(٨) المرجع نفسه.

(٩) عبد الواحد مهداوي، **"حماية التراث العمراني بالمغرب بين المقاربة الدولية والرهانات الوطنية"**، مجلة دفاتر جغرافية، العدد ٣-٤، الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس، ٢٠٠٧، ص ٨.

(١٠) المرجع نفسه، ص ٩.

(١١) المرجع نفسه، ص ٩.

(١٢) الظهير الشريف رقم ١,٨٠,٣٤١ بتاريخ ١٧ صفر ١٤٠١ (٢٥ دجنبر ١٩٨٠) يتضمن الأمر بتنفيذ القانون رقم ٢٢,٨٠ المتعلق بالمحافظة على المباني التاريخية والمناظر والكتابات المنقوشة والتحف الفنية والعاديات، الجريدة الرسمية عدد ٣٥٦٤ بتاريخ ١٨ فبراير ١٩٨١، ص ٧٣.

(١٣) **الجريدة الرسمية**، العدد ٣٥٦٤، بتاريخ ١٨ فبراير ١٩٨١، ص٧٣.

(14) Source: SDAU de Meknés, 1955.

(١٥) عبد الواحد مهداوي، **دليل التراث الثقافي والطبيعي بالمغرب**، منشورات مرايا، الطبعة الأولى، ٢٠١١، ص ٢٠٨.

(١٦) لقاء مع السيد رئيس مصلحة المآثر التاريخية بالجماعة الحضرية لمكناس، يوم الجمعة ١٨ فبراير ٢٠١١.

(١٧) باب منصور العلج، **معلمة في خدمة الثقافة بمكناس**، منشورات بلدية المشور الستينية، شركة دار الصحافة، ص ٧.

(١٨) **"المندوبية الجهوية لوزارة الثقافة"**. نقلاً عن: جريدة الشرق الأوسط، الأحد ١٨ شوال ١٤٢٣ هـ-٢٢ ديسمبر ٢٠٠٢، العدد ٨٧٩٠.